

## في رحاب جرش

بقلم: وليد ليبي، وفرانكلين هوسكين عام ١٩٠٢

ترجمة الدكتور أحمد عويدي العبادي.

استغرقت رحلتنا من الحصن إلى جرش ست ساعات، عبر أراضي جلعاد المتماوجة التي تسر الناظرين.

وقد سلكننا الطريق الشرقي، بدل المرور بسوف، حيث اتخذنا دربنا على طول طريق الحاج الذي يعبر أرضاً غاية في الخصوبة، بل ومن أخصب بقاع سوريا، إذ إنها تنتج كميات هائلة من الحنطة بعد أن بقيت بوراً على مر عدة قرون.



خرجنا من الحصن، ومررنا بالنعيمة، حتى وصلنا إلى شجرة بلوط ضخمة، ثم إلى وادي ورن الذي تسير عبره طريق إلى جرش، وقد اتخذ المسافرون ما بين جرش

والمزيريب هذا الوادي طريقاً لهم، ويبدو أن جنباته كانت مليئة بأشجار البلوط التي لم يبق منها إلا القليل، كما يعج بطيور الحجل.

صعدنا جبل قفقفا الذي يرتفع ٣٣٠٠ قدم عن سطح البحر، ثم رحنا ننحدر من سفوحه باتجاه جرش التي كانت قرية شركسية.

وصلنا هناك وخيمنا مهدوء وأمن قرب نبع الماء، حيث الجدول الذي يتدفق بروعة وبهاء، وعذوبة وصفاء.

تتميز جرش بأثارها المذهلة التي تأتي بالدرجة الثانية بعد تدمير من حيث الحجم والأهمية، والثانية بعد بعلبك من حيث جمال الهندسة وإحكام البناء ومع هذا كله فإنها تتفوق عليهما بعدد من الخصائص والاعتبارات.

يشق نهر الزرقاء أرض جلعاد إلى قسمين، كما يشكل مجرى عميقاً على مدى خمسة وثلاثين ميلاً، ينتهي بعدها إلى وادي الأردن.

تجثم جرش في بطن الوادي المؤدي إلى نهر الزرقاء، حيث اختار لها بناتها موقعاً بين أذرعة الجبال وأحضان التلال، وقد أحاطوها بالأسوار، واعتمدوا على ماء النبع الذي يضمن لها استمرار الحياة الهانئة، إذ لم تنغصها المنغصات، وقد أصبحت قبل ثلاثين سنة قرية شركسية، وأثناء بحث الشركس عن الحجارة للبناء استخرجوا حجارة مكتوباً عليها نصوص باللاتينية واليونانية، ولكنهم لحسن الحظ والطالع بنوها كأعتاب أو قناطر لبيوتهم بحيث بقيت الحروف ظاهرة للعيان، مما يمكن علماء الآثار من قراءة نصوص جديدة كثيرة بخط واضح.

لقد قام الشركس بتنظيف مساحات واسعة لغايات الزراعة بين ثنايا الأطلال في الجانب الغربي، كما فتحوا طريقاً ضيقة لعربات ثيرانهم، حتى إذا ما صادفوا حجارة يصعب إزاحتها، كانوا يلجأون إلى كسرها وتحطيمها لفتح الطريق، ولكنهم لم يبدأوا بتنقيب

حجارة البنايات الأثرية الكبيرة بعد، ونحن نأمل ألا تسمح لهم الحكومة بذلك، وقد وجدنا مدير الشركس الحجال شخصاً مثقفاً ومتعلماً.



ويعدّ الشركس من أحدث موجات الهجرة التي قدمت إلى هذه المنطقة واتخذت أماكن لاستيطانها على حافة الصحراء، بل إنهم من أكثر الموجات الجديدة بالانتباه من بعض المناحي.

البرفسور ق. أ يقول إنه: "لم تستطع أي قوة السيطرة على شرق الأردن سوى الرومان".

أمّا الرومان فقد أقاموا الطريق التي تصل القلاع بعضها ببعض، والتي ستدوم طويلاً من الزمن، أما الصليبيون فقد حاولوا تحقيق أحلامهم ومطامعهم خلال مئة سنة، والتي تعد فترتهم أحد الفصول المحزنة الكثيرة في تاريخ الإنسانية. أما ما تمارسه الحكومة التركية أو تحاول عمله الآن، فإنه سيؤول إلى ما آل إليه غيره من الفشل والهزيمة.

وفي خلال الفترة الواقعة ما بين ٦٠٠-١٠٠٠م نصب البدو خيامهم بين أطلال الإمبراطوريات القديمة دون أن يصيبوها بأذى، ورعت مواشيتهم في الأماكن التي كانت الآلهة والإلهات يعقدون المحاكم للأباطرة، وقد أدى إلى ازدهار العالمين اليوناني

والروماني، وفي السنين الأخيرة المعاصرة ادعت الحكومة التركية أنها تمثل القوة الإسلامية وأنها حارسة طريق الحج المؤدي إلى مكة المكرمة، ويسير الطريق على سيف الصحراء حيث تشكل حمايته عبئاً كبيراً كل عام، وقد قامت الحكومة على مدى أربعين سنة أو يزيد على توزيع مئة ألف ليرة ذهباً كل عام على القبائل التي تسيطر على هذا الطريق، لضمان عدم اعتدائهم على موكب الحجاج.



المدرج الجنوبي وخلفه الأرض الزراعية

وما أن عززت الحكومة من مركزها في دمشق تدريجياً حتى راحت تسيطر على الأرض الخصبة في شرق الأردن، ثم مددت سلطتها على الأراضي الجبلية، وذلك ببناء القلاع والسيطرة على القلاع القديمة منها وملئها بالجنود، فقد سيطر الأتراك على إربد قبل حوالي ثلاثين عاماً، ثم لحقت بها السلط ومأدبا، وبقيت الكرك شبه مستقلة حتى اثني عشر عاماً خلت بينما وقعت الشوبك في قبضة الحكومة قبل أربع سنوات، وخلال هذه الفترة

الزمنية أسرع الحكومة إلى مد خط هاتفى يغطي هذه المنطقة ويصل إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة وذلك لتعزيز سيطرتها وتأكيد هيمنتها.

تعدّ سياسة الحكومة التركية بسيطة ومستمرة، فقد وضعت يدها على جميع المدن والبنائات والقلاع القديمة والجديدة وادعت ملكيتها بغض النظر عن القبيلة التي تنزلها أو تدعي ملكيتها، وفي الغالب أن الأمر عندما يصل إلى ملكية الأرض، فإن المشكلة تبرز بوضوح فالرسميون يسألون هؤلاء البدو المساكين "من يملك هذه الأرض؟".

- البدوي: إنها أرضي.

- الحكومة: حسناً، أين ورقة الطابو التي تقول ذلك؟ ومتى ستدفع ما يترتب عليها من ضرائب؟

وعندما يبلغ مقدار الضرائب ضعف ثمن الأرض الحقيقي، فإنه لا يبقى خيار للبدوي إلا أن يتراجع عن ادعائه السابق بالملكية، ثم يرحل إلى منطقة أخرى بعيدة أو قد يأتي ببرهان أنها ليست له، أو أنه لا يريدّها، حينئذ تقوم الدولة باستدعاء غيرهم وتعطيهم ما يقال عنه أرض شاغرة لا مالك لها.